# منازل الآخرة

## - دراسة في التشابه بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي الاسباني - ابن عربي وسانتا تيريزا انموذجا


**م. د ضياء ماجد حسن**

**كلية الامام الكاظم (ع)**

col.edu.iq_Dhiaa.majed@alkadhum

# منازل الآخرة – دراسة في التشابه بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي الاسباني – ابن عربي وسانتا تيريزا انموذجا

**م. د ضياء ماجد حسن**

**المقدمة**

نتحدث في هذا البحث عن المنازل الرمزية التي كتبت عنها المتصوفة والقديسة الاسبانية تيريزا دي خيسوس St. Teresa of Jesus ( ت ١٥٨٢م ) في مؤلفها " القلعة الداخلية Castillo interior " والمعروف في الاوساط القدسية الانجيلية بإسم (المنازل) اذ ذكرت فيه تفاصيل رحلتها الصوفية عبر القصور السبعة التي تمثل في رمزيتها المنازل التي ينتقل عبرها السالك وصولا الى الله ، فهي تنتقل بنا من منزل لآخر وصولا الى المنزل السابع حيث الاتحاد مع الله عز وجل وهذا لا يتم الا اذا كان السالك عبرها من الصالحين، هذه المنازل التي تعد شبيهة بتفاصيلها الى حد كبير بتلك التي وصفها لنا متصوف مسلم سابق للقديسة بما يقرب من قرنين ونصف وهو ابن عربي المرسي ( ت ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠م) اذ كان قد سجل لنا في عدد من مؤلفاته لا سيما " الفتوحات المكية " منازل الآخرة كما وردت في التراث الإسلامي مع فارق في الرؤية الرمزية كما يصورها ابن عربي وحسب مشاهداته ، على اننا اتخذنا من تراث هذا المتصوف المسلم أنموذجاً للتأثير الإسلامي في التراث الصوفي الاسباني لا سيما ان ابن عربي ولد في الاندلس موطن القديسة تيريزا ، وترعرع هناك حين كانت الحضارة الاسلامية متفوقة زاهرة ومعطاءة يسطع نورها على كل الحضارات .

وقد اتخذنا محاور عدة لبيان كل ما له علاقة بالموضوع واهميته ودرجة التقارب التي نبحث عنها في دراستنا من تأثير وتأثر بين التراث الصوفي الإسلامي والتراث الصوفي المسيحي الاسباني، تطرقنا اليها ضمنا ونحن نتحدث عن المنازل في التراثين الصوفيين الإسلامي والمسيحي، من هذه المحاور :

أولا : التاريخية ، اذ تتبعنا سيرة حياة كل من المتصوفين ، ومسيرتهم نحو عالم التصوف وتأثير بيئتهم في تكوين شخصية كل منهما ، ونحيل الى عدد من المصادر للتعريف بهما بشكل اكبر لما لهما من أهمية كبيرة في مجتمعيهما لا يمكن حصرها في هذا البحث.

ثانيا : الفلسفية ، نجد في كتابات كل من ابن عربي والقديسة تيريزا جوانب فلسفية تظهر بشكل جلي وبما لا يخفى على احد ، فالمسيرة الرمزية الى الله مرورا بسبعة منازل ولقاء الأنبياء عبر هذا الرحلة ، فضلا عن الجوانب الصوفية ، كل ذلك له بُعداً فلسفيا ويدخل كذلك في عالم الغيبيات التي لا يعلمها الا الله عز وجل .

ثالثا : الاجتماعية : لكتابات ابن عربي والقديسة تيريزا اثرهما في المجتمع ، واذا اخذنا الجوانب الدينية دون تحيز لجهة دون أخرى سوف نجد ان تلك الكتابات تشجع على اصلاح النفس الإنسانية والوصول الى حد الكمال والتقرب الى الله عز وجل وبالتالي فهي اصلاح مجتمعي بكل ابعاده وان كانا في ديانات مختلفة .

ولا يفوتنا ان نؤكد ونحن نقوم بهذه الدراسة اننا نعرض المتشابه من أفكار في التراثين او بين القديسة الاسبانية وما جاء في كتابات ابن عربي، فهناك كتابات سابقة منها ما هي معروفة ومنها ما تعد كتابات مجهولة المؤلف لكن تم العثور عليها ، كلها تظهر ان موضوع المنازل جاء في كتابات سابقة لابن عربي ، لكن تشابه كبير في الأفكار وتقارب في الرؤى يظهر في معراج ابن عربي ورسمه الهندسي للمنازل وما جاء في الرسم الهندسي ومراحل الصعود عنه القديسة تيريزا ، ولا غرابة في ذلك اذا ما علمنا ان ملك اسبانيا الفونسو العاشر AlfonsoX (٦٥٠ – ٦٨٣هـ / ١٢٥٢–١٢٨١م) [١] قد امر طبيبا يهوديا يعمل في بلاطه اسمه ابراهام الحكيم بترجمة عدد كبير من المؤلفات الإسلامية منها قصة المعراج الإسلامية التي استعارها ابن عربي ليصعد عبر عقله الباطن نحو السماوات السبعة ، تلك المؤلفات ترجمت معظمها الى اللغة القشتالية الاسبانية عام ١٢٦٣م ، وهنا يمكننا ان نؤيد ما ذكرته عدد من الدراسات بأن هناك عدد من المتصوفة الاسبان كانوا متأثرين بمتصوفة مسلمين واخذوا أفكارا من التراث الإسلامي الاندلسي وكتابات علمائه، وهذا ما سوف نتطرق له في كتابتنا لهذا البحث .

وللتوضيح أكثر عن هذا الموضوع سوف نبدأ بالتعريف بشخص ابن عربي المرسي بقليل من الاختصار كونه شخصية صوفية إسلامية معروفة، ثم نسهب بالحديث عن القديسة تيريزا كونها غير معروفة في الأوساط الإسلامية ولتتضح صورتها أكثر وما قامت به من اعمال مهمة خدمة للكنيسة اهلتها لان تكون احدى اهم الشخصيات الخالدة في الأوساط الانجيلية تقام لها مراسيم الصلاة في كل عام وعلى مختلف بقاع الأرض.

**الكلمات المفتاحية :( المنازل، التصوف، تيريزا)**

**Abstract**

In this research, we talk about the symbolic houses that the Sufis and Spanish Saint Teresa de Jesus wrote about. Teresa of Jesus (d. 1582 AD) in her book “The Castillo Interior,” known in evangelical sanctity circles as “The Houses,” in which she mentioned the details of her Sufi journey through the seven palaces, which symbolically represent the houses through which the seeker travels to reach God, as it moves us from One house to another, all the way to the seventh house, where union with God Almighty is achieved, and this cannot be achieved unless the person walking through it is one of the righteous. These houses, whose details are very similar to those described to us by a Muslim Sufi who preceded the saint by nearly two and a half centuries, namely Ibn Arabi Al-Mursi(d. 638 AH /1240 AD) as he had recorded for us in a number of his works, especially “The Meccan Conquests”, the stages of the afterlife as mentioned in the Islamic heritage, with a difference in the symbolic vision as depicted by Ibn Arabi and according to his observations, although we have taken the legacy of this Muslim Sufi as a model for influence. Islamic in the Spanish Sufi heritage, especially since Ibn Arabi was born in Andalusia, the homeland of Saint Teresa, and grew up there when the Islamic civilization was superior, prosperous and generous.

## المبحث الأول : حياة ابن عربي والقديسة تيريزا

### أولا : ابن عربي المرسي

محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي ، أحد أشهر المتصوفة المسلمين ، لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفية " بالشيخ الأكبر" ، وإليه تنسب الطريقة الأكبرية الصوفية ، ولد في مرسيه ( شرقي الأندلس) بإسبانيا في ١٧ رمضان ( ٢٩ تموز ) عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٤م لذلك سمي بالمرسي ، سكن في أشبيلية عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م ثم قصد المشرق عن طريق مصر الى الحجاز حيث اقام مدة طويلة الى ان قرر الذهاب الى بغداد والموصل واسيا الصغرى ثم استقر في دمشق حيث توفي فيها عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م [٢].

يقول المستشرق الانكليزي رينولد نيكلسون وقد اجاد في القول بشكل مختصر وهو ينقل لنا كيف تأثر ابن عربي بالأسرار الإلهية ليصبح شخصا من نوع اخر ، شخصا صوفيا ترك اثره الكبير على التراث الصوفي الإسلامي في كل الازمان : " احداث حياته تبدو انها امضيت بصورة رئيسية في الاسفار ومحادثة المتصوفة ووضع مؤلفاته العديدة التي بلغت

حوالي الثلاثمائة حسب احصائه ، اشهرها "الفتوحات المكية " و "فصوص الحكم" والفتوحات مؤلف ضخم بخمسمائة وستين فصلا يحوي تنظيما كاملا ليعلم التصوف ويروي المؤلف انه رأى النبي محمد (ص) في عالم الأفكار الحقيقية جالسا على عرش وسط الملائكة والانبياء والاولياء ، وتلقى امره بالتحدث في الاسرار الإلهية وقابل في مناسبة أخرى وهو يطوف بالكعبة ، روحا علويا على هيئة شاب مشغول بنفس الطقوس ، فاطلعه على المعبد الباطني الحي المخفي تحت المظهر الخارجي الذي لا حياة فيه كالمادة الازلية للأفكار الإلهية المخفية تحت اقنعة الدين الشائع ، الأقنعة التي يجب ان يخترقها العقل السامي الى ان تشترك ، بعد وصولها الى الجلال الداخلي ، بالطبيعة المقدسة وترى مالا تتحمل أي عين بشرية النظر اليه ، فغشي على ابن عربي في الحال وعندما عاد الى وعيه امر بان يتأمل الشكل الحلمي او صورة الرؤيا وان يدون الاسرار التي توحيه لبصره ثم دخل الشاب الكعبة مع ابن عربي فظهر له بعد ان استعاد مظهره الروحي، جالسا على مقعد ذي ثلاث أرجل، فنفخ في صدره علم جميع الأشياء وامره مرة أخرى بان يصف الشكل السماوي الذي تتقمص به جميع الاسرار ، هذا هو الأثر المشهور " للفتوحات المكية " حيث دون القسم الأعظم منه في المدينة التي نزل فيها الوحي على النبي محمد (ص) قبل ذلك بستمائة سنة ، وقد أعتقد المؤلف ( ابن عربي ) او تظاهر بالاعتقاد، بان كل كلمة منها املتها عليه قوة خارقة " [٣].

**ثانيا : القديسة تيريزا دي خيسوس St. Teresa of Jesus (١٥١٥ – ١٥٨٢م)**

وكما ذكر ابن عربي أنه شاهد النبي محمد (ص) وسط الملائكة والانبياء (عليهم السلام) والهمه الاسرار الإلهية ، فأن شخصية أخرى عاشت في القرن السادس عشر ، هي صوفية مسيحية من ارض اسبانيا كانت قد ذكرت انها رأت السيد المسيح (ع) والهمها بنار الحب الإلهي، كما قالت انها شاهدت السيدة العذراء(ع) ، فصارت تدرك ان لا شيء ينفع ما لم تضع ثقتها كلها بالله وما انفكت بعد ذلك ترى الله بمخيلتها وفكرها .

ولدت القديسة تيريزا سانشيز دي سيبيدا دافيلا أهومادا Teresa Sanchez de Cepeda Davila Ahumada في ٢٨ اذار ١٥١٥ بالمقاطعة الاسبانية افيلا Ávila التي تقع في الوسط الغربي للبلاد ( على بعد ١٠٠ كلم من مدريد ) ، والدها هو الفونسو سانشيز

دي سيبيدا Sanchez de Cepeda Alfonso Don الذي وصف بأنه صارما للغاية اما والدتها دونا بياتريس دافيلا أهومادا Doña Beatriz Davila y Ahumada ( وهي الزوجة الثانية للفونسو) فكانت لطيفة ومتدينة وهادئة[٤] ، ومن المناسب ان نذكر هنا بأن طريقة تسمية الشخص في اسبانيا يأخذون اسم الأب واسم الأم ، وتيريزا كان اسما لجدتها من جهة الاب ، وهو الاسم الذي عرفت به [٥] .

كان تسلسل القديسة تيريزا الثالث بالنسبة للعائلة من بين ثلاثة اناث وتسعة ذكور[٦]، وقد تميزت منذ طفولتها بإهتمامها بالدين والتزمت الصلاة لساعات طويلة من اليوم وحرصت على توزيع الصدقات للمحتاجين والفقراء وواظبت على القراءة والتعلم والتعرف اكثر على القديسين وحياتهم، وكانت قريبة الى حد كبير من والدتها التي علمتها الالتزام الديني وحب السيدة العذراء [٧]، في عام ١٥٢٧م حصلت المأساة عندما توفيت والدتها شابة لم تبلغ الثلاث وثلاثين من عمرها ، حينها كانت تيريزا في الثاني عشر فقط[٨] ، هذا الامر أثر فيها بشكل كبير وجعلها حزينة جدا ، وانجذبت بفطرة غريزية نحو الصلاة والتضرع ، وعن ما أصابها من حزن تقول تيريزا :" اذكر اني حين توفيت والدتي كنت في حوالي الثانية عشرة من عمري ، وإذ بدأت اعي فداحة الخسارة التي اصابتني ، ومضيت محزونة الصدر الى صورة السيدة العذراء وتوسلت اليها بدموع غزيرة لتكون امّاً لي ، اعتقد ان طلبي على بساطته لقي قبولا فقد نلت استجابة لدى العذراء السامية كلما توسلت اليها بحيث جعلتني أخيرا في خاصتها ":

I remember that, when my mother died, I was about twelve years old—a little less. When I began to understand my loss, I went in my affliction to an image of our Lady, and with many tears implored her to be my mother. I did this in my simplicity, and I believe that it was of service to me; for I have by experience found the royal Virgin help me whenever I recommended myself to her; and at last she has brought me back to herself[9].

تولت اختها الاكبر ماريا دي سيبيدا مسؤولية رعاية تيريزا واصبحت الام الثانية لها ، لكنها تزوجت عام ١٥٣١م وتركت بيت العائلة [١٠]، اما الاب فلم تكن لديه الرغبة بجعل

ابنته تتحمل مسؤولية منزل والدها وهي في عامها السادس عشر لا سيما ان تعليمها لم يكتمل بعد ، وهذا ما جعله يفكر في ارسالها الى دير اوغسطينوس للراهبات في افيلا ؛ فأعاد ذلك شغفها بالدين وقررت ان تكون راهبة تعيش حياة روحية في النظام الانجيلي الكرملي [١١].

لكن تيريزا لم تجد البيئة الملائمة في هذا الدير ، اذ انها لم تنسجم مع بقية الراهبات فضلا عن ان المكان كان مزدحما بالزوار وهذا ما اثر على تركيزها في الصلاة والشروع بالحياة الروحية التي كان تسعى اليها فقررت بعد عام ونصف مغادرة الدير والعودة الى بيت ابيها[١٢] .

عام ١٥٣٥م دخلت تيريزا دير التجسد الكرملي في مدينتها افيلا عازمة على التوجه الى الله بكل قواها ، وفوجئت بسهولة الحياة الرهبانية التي كانت تعشها الراهبات الكرمليات في هذا الدير ، فكل ما تحتاجه من رخاء واكتفاء لتعيش حياة السكينة والتأمل والصلاة متوفر هنا في هذا الدير ، ولم تكتف بالحياة الرهبانية التي عاشتها بل انها حاولت ان تقوم ببعض الاصلاحات في النظام الكرملي ليصل حسب ما ترى الى حد الكمال ، لكنها سرعان ما مرضت مرضا شديدا اضطر والدها الى نقلها لإحدى المدن القريبة للعلاج ، وبدلا من ان تشفى ساءت حالتها اكثر وفقدت الوعي لمدة اربعة ايام حتى بدى وكأنها ميتة وهذا ما جعل العاملون يحضرون لها قبر في الدير قبل ان تستفيق من غيبوبتها واخذت تستعيد عافيتها تدريجيا ، لكنها بقيت مشلولة لمدة عامين قبل ان تشفى شفاء تام ، وحين تعافت نسبت شفاءها الى شفاعة القديس يوسف [١٣].

في عمر التاسعة والثلاثون اي بعد مرور تسعة عشرة عام من حياتها في الدير، كانت نقطة التحول الكبيرة في حياة تيريزا، فحسب ما قالت ان السيد المسيح (ع) قد ظهر لها في احدى ردهات الدير وهو مثخن بالجراح واضرم قلبها بنار حبه الإلهي وهذا ما جعلها تحيا من جديد حياة الصلاة والايمان واصبحت متعطشة لله وتردد مقولتها الشهيرة "الله وحده يكفي"[١٤].

في عام ١٥٦٠ قررت القديسة تيريزا انشاء ديرا كرمليا بتشجيع من القديس فرنسيسكان بطرس الكانتارا الذي صار مرشدها ومستشارها الروحي ، واخذت على عاتقها التبشير واقناع الاسبان من الطوائف الاخرى بأتباع المسيحية ، وفي عام ١٥٦٢ انشأت ديرا جديدا وهو سانت جوزيف او ( القديس يوسف ) وبذلت جهودا كبيرة لإتمامه ، وقد ذاع صيت هذا الدير وازداد عدد الراهبات الراغبات في الدخول فيه ، وبدأ عملية الاصلاح برفقة شاب آخر له شأن كبير بالتاريخ الصوفي الاسباني في هذه المرحلة يدعى خوان دي لاكروث ( القديس يوحنا الصليبي )[١٥] وعرفوا بحركة الرهبان الكرمليون الحفاة [١٦] .

وعلى مدار ما يقرب من خمسة عشر عام اسست القديسة ستة عشر ديرا كرمليا في اسبانيا وخارجها وكانت تقوم بنفسها بقضايا الترميم او البناء او قضايا المعاملات الدينية او الرسمية مع الدولة ، كما منحت الإذن بإنشاء ديرين للرجال الراغبين بالإصلاح [١٧] .

كانت تيريزا تقضي اغلب اوقاتها في العزلة والصلاة ، كما جاهدت من اجل هدفها في الاصلاح الذي تعني به الرجوع الى تعاليم الكنيسة الاولى ، وتمسكا بتشريعاتها المتشددة ، كذلك الاهتمام بالأديرة التي اسستها من خلال زياراتها المستمرة ومتابعة شؤون الراهبات ، فضلا عن اهتمامها بكتابة الاعمال الادبية التي تحث على الطمأنينة والسلام عن طريق التقرب الى الله ، ومن اهم كتاباتها: " **السيرة** " الذي يعد مذكراتها الشخصية كتبته بخط يدها عام ١٥٦٢م[١٨] ، و" **طريق الكمال** " كتبته عام ١٥٦٦م واعادت كتابته عام ١٥٧٦م تصف فيه الطرق التي تقرب الى الله عبر الصلاة والتأمل ارادت من ذلك تنشئة الراهبات المبتدئات تنشئة صحيحة ، كما اوضحت فيه الغرض من حياة الانسان الروحية ، ثم كتاب " **التأسيسات** " وقد بدأت بكتابته عام ١٥٧٤م وانجزته قبل وفاتها بشهرين .

اما اهم اعمالها الادبية فهو المنازل او **القلعة الداخلية Castillo interior** الذي استطاعت ان تكتبه في غضون اشهر قليلة من عام ١٥٧٧ اي قبل وفاتها بخمس سنوات ، وهو خلاصة التعاليم الروحية التي تؤمن بها، وصفت فيه الصلاة العقلية ومراحل التطور الروحي التي تؤدي الى الكمال والاتحاد مع الله ، وهناك كتابات اخرى تعد رسائل كتبت

شعرا ونثرا تخاطب بها عامة الناس وتحثهم على الاهتمام بالحياة الروحية والايمان بالله والسيد المسيح [١٩].

لم تتوقف تيريزا عن العمل في التأسيس والترويج للكاثوليكية حتى وهي في العقد السادس من عمرها بل انها ظلت نشطة تمارس حياتها بجد واخلاص، والسعي الدائم لإصلاح الكرمليين وانتشار تعاليمهم، ولم تتوقف كذلك عن الاسفار والزيارات المتكررة لجميع الاديرة التي انشأتها والصلاة المتواصلة، كل ذلك جعل صحتها تسوء تدريجيا يوما بعد آخر، وفي احد الأيام اصيبت بنزيف حاد الزمها الفراش وادركت ان نهايتها وشيكة، وفي 4 اكتوبر ( تشرين الاول ) عام ١٥٨٢م اسلمت الروح وهي ابنة سبعة وستين عاما [٢٠].

وبوفاتها خسرت الكنيسة الكرملية راهبة همها الكمال ، ومُصلحة لا تهون امام الصعوبات ، ومُؤسسة تبني اديار الكرمل في ارض اسبانيا وخارجها ، ومُؤلفة تكتب تلبية لواجب الطاعة ومُعلمة صوفية افنت حياتها بالعمل والبناء والعطاء والايمان الكبير واستطاعت بفضل صبرها وتفانيها وثقتها وتسليمها المطلق لله ان تضع اسس جديدة للنظام الرهباني الكرملي ، يتبع رسالتها السائرين وفق تعاليمها والمنتشرين في العديد من بقاع الارض ، اذ فاقت شهرتها حدود اسبانيا لاسيما بعد ترجمة اعمالها الى معظم اللغات فأصبحت مرجعا للاهوتيين الروحيين وكذلك للمهتمين بالدراسات الصوفية ، وقد اعلن البابا غريغوريوس الخامس عشر قداستها في ١٦٢٢م ، فيما اعلنها البابا بولص السادس معلمة للكنيسة الكاثوليكية عام ١٩٧٠م كأول امرأة حصلت على هذا التميز ، وفي ذكرى وفاتها في ٤ تشرين الأول ( الذي صار بمقتضى إصلاح التقويم الغريغوري ١٥ تشرين الاول ) من كل عام تُعَبّد لها فيه الكنيسة وتعلن عيدا لها تقام فيه الصلوت [٢١] .

## المبحث الثاني : رؤية صوفية عبر المنازل السبع

### أولا : القلعة الداخلية Castillo interior او (المنازل السبع )

يعد كتاب المنازل تحفة ادبية من اللاهوت المسيحي الاسباني ومن اروع ما خطته يد القديسة تيريزا عن الحياة الصوفية وهي تنطلق في عالم الرمز، وكذلك يعد بمثابة تعاليمها الحية وثمرة تجربتها الطويلة الهادفة الى الكمال ، ودراسة في افكارها المتناغمة دائما مع "

الكتاب المقدس " توضح فيه تفاصيل رحلتها الروحية عبر المنازل السبعة، إذ اعتبرت النفس قصرا فيه كثير من المساكن كما ان في السماء منازل كثيرة، لكنها تتحدث عن منازل سبع فحسب، ذلك انها تعدها سبعة انظمة او سبعة نماذج ، وهنا استخدمت تيريزا نفسها كقلعة او قصر مكون من الماسة كبيرة او بلورة شديدة النقاء ، وهذا القصر يرمز الى الانسان او النفس ومحيط القصر هو الجسد وباب القصر هو التأمل ، وسكان القصر : الله والانسان ، وترمز المنازل المتوافرة في القصر الى الطرائق المختلفة لحياة الانسان مع الله ، حيث تعرضها لنا بأصالة واصفة عملية انتقالها في المراحل سيرا نحو تقربها الى المقام الأعلى وصولا الى الاتحاد مع الله عبر التعمق بمعرفة الذات ، وتلجأ الى التعبير المجازي في وصفها للروح بأنها مثل قلعة ذات سبعة منازل[٢٢] ، واذا تمعنا جيدا في سطور هذا الكتاب سوف نلاحظ ان المراحل التي هي معالم المسيرة الروحية في القصر تتألف من : **مرحلة** زهدية تتمثل في المنازل الاولى والثانية والثالثة وبطلها الانسان الذي يجاهد ويجهد نفسه للتجاوب مع مقتضيات النعمة ، و**المرحلة الثانية** وهي تشمل المنازل الخامسة والسادسة والسابعة ويطغى الطابع الصوفي عليها وبطلها هو الله سبحانه وتعالى الذي يظهر تأثيره حاسما اكثر فأكثر فهو يأخذ زمام المبادرة بينما الانسان يعاني من التأثير الالهي هذا ويزداد اختبارا له ، وتتوسط هاتين المرحلتين **مرحلة انتقالية** تتمثل في المنازل الرابعة يتداخل فيها الطبيعي والفائق الطبيعة ، انها صلة وصل تتوافق فيها وتتناغم حياة النفس الصوفية في انطلاقتها مع اعمالها ذات الطابع الزهدي .

## ثانيا : التقارب الفكري بين تصوف سانتا تيريزا والتصوف الاسلامي عند ابن عربي

يعد التقارب الفكري والتأثير المتبادل بين الاديان ، كل الاديان ، موضوعا ثابتا لا جدال فيه حسب رأينا ، ما دام المصدر واحد وهو الله عز وجل مصدر الكتب السماوية وخالق الانبياء والرسل ومعلمهم الاول ، فهناك تشابه في العبادات والمعتقدات وتقارب في التعاليم المكتوبة والممارسات المتبعة والمنقولة شفويا ، ومنازل الآخرة عند القديسة تيريزا ليس بمنأى عن هذا التأثير والتشابه مع ما ورد في كتب متصوفة سواء كانوا مسلمين او غيرهم[٢٣] ، وهنا في هذا البحث نبدأ بتتبع ما استطعنا التوصل اليه من نقاط الالتقاء والتقارب عند

القديسة من جهة ومتصوف مسلم متمثل إبن عربي المرسي من جهة أخرى ، الذي كتب هو ايضا عن منازل الآخرة في مؤلفه المعروف ( الفتوحات المكية ) وكذلك ما سجله لنا في مؤلفاته الاخرى .

تبدأ القديسة رحلتها الصوفية برؤيا تأملية وهي مستغرقة في الطاعة وحب الله فتقول : " بينما كنت اتضرع اليوم الى الله ليتكلم بواسطتي ، اذ ما كنت أُصِيب في ايجاد ما اقول ولا كيف ابدأ تنفيذ هذه الطاعة ، ورد في خاطري ما سأقوله الان لأنطلق من اساس ما وهو ان نعتبر انفسنا بمثابة قصر مكون كله من الماسة واحدة او بلورة شديدة النقاء فيها الكثير من المساكن كما ان في السماء منازل كثيرة ".

“ While I was begging our Lord to-day to speak for me, since I knew not what to say nor how to commence this work which obedience has laid upon me, an idea occurred to me which I will explain, and which will serve as a foundation for that I am about to write, I thought of the soul as resembling a castle, formed of a single diamond or a very transparent crystal and containing many rooms, just as in heaven there are many mansions” (24).

وتضيف :" فلنعتبر ان هذا القصر يشتمل كما قلت على عدة منازل، بعضها في اعلى القصر والبعض الآخر في الاسفل منه، وبعض في جوانبه ويقوم في وسط هذه المنازل في قلبها كلها المنزل الاهم حيث تجري اخفى الامور بين الله والنفس".

“Let us imagine, as I said, that there are many rooms in this castle, of which some are above, some below, others at the side; in the centre, in the very midst of them all, is the principal chamber in which God and the soul hold their most secret intercourse”(25) .

وهذا يعني ان القديسة قد انتقلت عبر المنازل السبعة بخيالها ولم تدعي غير ذلك وان الرب قد اراد لها ان تتأمل الفردوس الاعلى ويكون هذا التشبيه ذا فائدة لمن كانت تخاطبهن وهن الراهبات الكرمليات .

وكما شاهدت القديسة منازل الآخرة عبر التأمل، نجد المتصوف المسلم ابن عربي السابق لتيريزا بأكثر من قرنين ونصف قد عرج بمخيلته الصوفية ايضا الى السماء فيقول " **عُرج بي الى اول سماء فرأيتها مزينة بالنجوم** " (٢٦) .

ويقول أيضا : " **فبينما انا نائم وسر وجودي متهجد قائم ، جاءني رسول التوفيق يهديني سواء الطريق ، ومعه براق الاخلاص عليه لبد الفوز ولجام الخلاص ، فكشف عن سقف محلي ، واخذ في نقضي وحلي ، وشق صدري بسكين السكينة ، وقيل لي تأهب لارتقاء الرتبة المكينة** " (٢٧) .

من هذا النص يتضح لنا ان المعراج الصوفي لابن عربي هو رحلة منامية اخذ تصورها من معراج الرسول محمد(ص)، اذن فالحالة مشابهة عند المتصوفين المسيحي والمسلم اي القديسة تيريزا وابن عربي حيث ان الانسان نفسه يعرج الى السموات برحلة صوفية رمزية الغرض منها هو تجديدا اخلاقيا للأرواح بالأيمان والاصلاح والكمال(٢٨) .

ويمتد التشابه في الرمزية عند كل من ابن عربي والقديسة الى مشاهدة الأنبياء والقديسين في السماوات السبعة فضلا عن مشاهداتهم لشخصيات أخرى ذُكرت في الكتب السماوية المقدسة.

## ثالثا: طرق الدخول الى المنازل او السماوات السبعة

من المعروف ان الطاعة والتأمل والعمل في حب الله مع الاخرين هي غاية كل انسان ، مهما كانت عقيدته ، اذا ما أراد الوصول الى الدرجات الاعلى من الفردوس او المنازل العليا من الجنة ، وهنا وحسب الوصف الرمزي عند كل من ابن عربي والقديسة تيريزا ان الانسان حين يرتقي الى اسمى درجات الكمال والحب الإلهي بإمكانه ان يصل الله عز وجل بل ويقترن به ، هذه الدرجات تبدأ عن القديسة بدخولها باب القصر وتستمر بالتقدم ، كذلك عند ابن عربي عبر الانتقال من السماء الأولى الى السابعة مرورا بجناتها .

تدخل القديسة الى القلعة من باب القصر حيث المنازل الاولى، هذا الباب الذي تصفه بأنه التأمل والتفكير، ولا تقصد هنا الصلاة العقلية أكثر من اللفظية، فإن تكن يجب ان يصحبها التفكير :

"As far as I can understand, the gate by which to enter this castle is prayer and meditation, I do not allude more to mental than to vocal prayer, for if it is prayer at all, the mind must take part in it" [29].

ونجد ابن عربي أيضا يصف التقرب الى الله من باب العزلة عن الناس والخلوة وطلب العلم الذي به تقيم الطهارة والصلاة والصيام فيقول :

**" لابد لك من العزلة عن الناس وإيثار الخلوة عن الملأ، فإنه على قدر بُعدك من الخلق يكون قربك من الحق ظاهرًا وباطنًا، فأوّل ما يجب عليك طلب العلم الذي به تقيم طهارتك وصلاتك وصيامك وتقواك وما يفرض عليك طلبه خاصة، لا تزيد على ذلك شيئًا وهذا هو أول باب الطريق والسلوك ، ويأتي بعده العمل به، ثم الورع، ثم الزهد، ثم التوكل "** [٣٠].

وتصف لنا القديسة طرق الاقتراب من المنازل، وتذكر لنا كذلك من ابتعدوا عنها " وان هناك نفوس ضعيفة جدا وغير معتادة على التفكير ولا تشغلها غير الأمور الدنيوية، لا تعرف طرق الدخول الى تلك المنازل بل ولا تعرف ماذا يوجد فيها من جمال رائع، وهؤلاء هم الذين لا يمارسون الصلاة والتأمل واعتادوا الاهتمام بأمور خارجية غير نافعة " :

"there are souls so infirm and accustomed to think of nothing but earthly matters, that there seems no cure for them, It appears impossible for them to retire into their own hearts" [31] .

وتتفق القديسة مع ابن عربي في هذا الوصف، أي طرق المنازل والتقرب الى الله عز وجل:

" فأول ما أبيّنه لك كيفية السلوك إلى الله، ثم كيفية الوصول والوقوف بين يديه والجلوس في بساط مشاهدته، وما يقوله لك، وكيفية الرجوع من عنده إلى حضرة أفعاله به وإليه، والاستهلاك فيه، وهو مقام دون الرجوع "[٣٢].

ويقول أيضا:

" أن الطرق شتى، والطريق الموصل إلى الحقِّ هو مفرد، وأفراد هم الذين يسلكون طريق الحق، ومع أن طريق الحقِّ واحد فإن وجوهه تختلف بحسب اختلاف سالكيه من اعتدال المزاج أو انحرافه، ومن قوة الروحانية وضعفها، أو استقامة الهمة وميلها " [٣٣] .

**المبحث الثالث – المنازل عند كل من القديسة تيريزا وابن عربي**

اعتمد كل من القديسة تيريزا وقبلها ابن عربي في الحديث عن المنازل على منهج الوصف السردي الهدف منه إيضاح أمور عقيدية جوهرية قد تكون غامضة او غير مفهومة لدى الكثيرين ممن يطلبون الكمال وبذلك تكون مؤلفاتهم نورا هاديا للتوجه الروحي لكل انسان، وهي كما ذكرنا رحلة رمزية صوفية الغرض منها التشويق والمتابعة لكن هدفها الأهم هو التجديد الاخلاقي والايمان بالثواب والعقاب من قبل الله عز وجل لذلك لا تبتعد كثيرا عما ذُكر في الكتب السماوية او ما تحدّث به الأنبياء والقديسين ، فإبن عربي يعرج الى السماء ويصفها لنا ، ويأخذ ما ذكر في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فيما يتعلق بالسموات السبعة وما ذكر عن الجنة ودرجاتها والقديسة تصف لنا المنازل السبعة برحلتها عبر القصر الذي فيه سبع منازل والكتاب المقدس دائم الحضور في تفكيرها وذهنها ، على انهما يتكلمان عن قربهما من الله عز وجل بل ان القديسة تجعل نهاية طريق الايمان اتحادا مع الله ، وهذا ما نعود لنؤكده بالرحلة الصوفية الرمزية " اذ اننا نعلم انه ليس هناك مخلوق يمكنه الاقتراب من الله قربا مكانيا ، فإنه تعالى لا يحويه مكان لكن القرب منه هنا هو قرب معنوي ، وهو قرب محبة ورضى قرب مكانة لا مكان" [٣٤] .

وبعد ان بينا طرق الدخول لتلك المنازل والشروط التي أكد عليها كل من المتصوف المسلم ابن عربي والمتصوفة المسيحية تيريزا دي خيسوس، ندخل معهما الى تلك المنازل لنبين اهم ما تم التوافق عليه او التشابه بين الرحلتين.

**أولا : المنازل عند القديسة تيريزا**

تتحدث القديسة عن **المنازل الأولى** فتوصف كل من يريدون ان يدخلوها بأن لديهم رغبات صالحة ويكرهون الخطيئة لكنهم يعيشون مقيدين وقد نسوا ان يتجنبوا الأخطاء العرضية "وهذا الامر لا يحدث بسهولة مع النفوس الأقرب الى الله فالنفوس في هذه المنزلة مازالت متشربة من العالم السفلي ومستغرقة في افراحه وهائمة بجاهها وطموحاتها فهي لا تمتلك الطاقة الايمانية التي أعطاها الله فتهتز بسهولة " :

“He cannot so easily deceive souls which dwell nearer to the King as he can beginners still absorbed in the world, immersed in its pleasures,

and eager for its honours and distinctions. As the vassals of their souls, the senses and powers bestowed on them by God, are weak, such people are easily vanquished"(35).

اما **المنازل الثانية** للقصر فهنا تدخل النفس بمرحلة أخرى، اذ انها بدأت تبتعد عن المحرمات وتسير بالطريق الصحيح نحو الله، تقول القديسة تيريزا: " ان طموح من يبدأ حياة التأمل ان تطابق ارادته إرادة الله ، ففي هذا يكمن اعظم كمال يمكّن الوصول اليه في الطريق الروحي وكلما كانت النفس اكثر كمالا فإنها سوف تنال المزيد عند الله وتحقق مزيدا من التقدم في هذا الطريق "

**"to resolve and strive to the utmost of her power to conform her own will to the will of God ، Be certain that in this consists all the greatest perfection to be attained**
**in the spiritual life, She who practises this most perfectly will receive from God the highest reward and is the farthest advanced on the right road"(36).**

وتتحدث القديسة تيريزا عن **المنازل الثالثة** حيث تنعم النفوس بمنة كبيرة، ونعم من فضائل الله ورغبة في ملاقاته، وهنا تكون محبة للخير والتوبة وعدم ارتكاب الخطايا، اذ تقول " ان الرب لم ينعم عليها بمنة صغيرة حتى اجتازت الصعوبات الأولى بل بمنة كبيرة جدا واظن ان مثل هذه النفوس كثيرة في العالم بفضل الرب وهي تواقة للتقرب لجلاله بل تحاذر حتى الخطايا العرضية، مُحبة لأعمال التوبة واوقات الاختلاء، تُحسن استخدام وقتها وتعكف عن اعمال المحبة مع القريب "

"God has shown them no small favour, but a very great one, in enabling them to pass through the first difficulties. Thanks to His mercy I believe there are many such people in the world: they are very desirous not to offend His Majesty even by venial sins, they love penance and spend hours in meditation, they employ their time well, exercise themselves in works of charity to their neighbours"(37).

وفي **المنازل الرابعة**، مرحلة العبور الى الصوفية ، اذ تشرع القديسة تيريزا في استلهام الروح القدس، وتصف المنازل الباقية بأنها فائقة الطبيعة : " لما كانت هذه المنازل تقرُب

من مقام الله ، فإنها رائعة الجمال وتضم أشياء غاية في اللطف منظرا ومسمعا يعجز العقل عن رسم صورتها او قول ما يطابق حالها تماما " :

"As these mansions are nearer the King's dwelling they are very beautiful, and so subtle are the things seen and heard in them, that, as those tell us who have tried to do so"[38].

اما في **المنازل الخامسة** ، فهنا تكون النفس اقرب الى الله ، تاركة تماما كل ما يتعلق بزخارف الدنيا ولا يمكن للشيطان ان يقترب منها ما دام الله قريب جدا ومتحد بجوهرها : " أؤكد ان ثمة اتحاد مع الله ، والشيطان لا يستطيع الدخول ولا احداث أي اذى لان الله عز وجل قريب من النفس أي قرب ، ومتحد بجوهرها فلا يجرأ الشيطان على الدنو ويعجز عن فهم السر " :

for His Majesty is so joined and united with the essence of the soul, that the evil one dare not approach, nor can he even understand this mystery. This is certain, for it is said that the devil does not know our thoughts[39] .

وفي **المنازل السادسة** تتحدث القديسة عن النفس كيف يكلمها الله في رؤية عقلية رمزية، تحدث في اعمق أعماق النفس وتكون هي على يقين بأن الحديث من الله وليس من المخيلة فتقول: " حين يحسُن للرب، يحدث للنفس، وهي تمارس التأمل ممتلكة حواسها كلها، ان يبادرها فجأة توقف يُفهمُها فيه الرب اسرارا عظيمة فكأنها تراها في الله نفسه، وليس هذه رؤى ناسوت الكلي القداسة ، ولو قلت انها ترى فهي لا ترى شيئا لأنها ليست رؤيا خيالية بل عقلية يكشف فيها للنفس كيف ترى جميع الأشياء في الله وكيف يحويها كلها في ذاته " :

"God is sometimes pleased, while a person is engaged in prayer and in perfect possession of her senses, to suspend them and to discover sublime mysteries to her which she appears to see within God Himself. This is no vision of the most sacred Humanity nor can I rightly say the soul 'sees,' for it sees nothing; this is no imaginary vision but a highly intellectual one، wherein is manifested how all things are beheld in God and how He contains them within Himself"[40].

وأخيرا، تعد **المنازل السابعة** مرحلة الاكتمال الروحي المتسم " بالاتحاد مع الله " واعلى درجات الحب الإلهي للقديسة تيريزا تعبر عنها بطريقتها الصوفية فتقول : " انه لسر عظيم أي عظمة ونعمة سامية أي سمو ما يبلّغه الله النفس عند ذاك في لحظة ، واللذة العظمى التي تشعر بها النفس لعظيمة جدا ، فلا ادري بما اقارنها ، الا ان الرب يود ان يظهر لها في تلك اللحظة مجد السماء ، بطريقة ارفع كثيرا من اية رؤيا او متعة روحية لا يُستطاع القول ، على قدر ما يدرك الامر ، اكثر من ان النفس اعني روح هذه النفس تصير مع الله واحد " :

"So mysterious is the secret and so sublime the favour that God thus bestows instantaneously on the soul, that it feels a supreme delight, only to be described by saying that our Lord vouchsafes for the moment to reveal to it His own heavenly glory in a far more subtle way than by any vision or spiritual delight, As far as can be understood, the soul, I mean the spirit of this soul, is made one with God"[41].

## ثانيا : المنازل عند ابن عربي

اما عن إبن عربي ، فإن مراتب الصالحين حسب وصفه تقسم الى أربعة اصناف وهو يجمع بين حديثه عن سبع سموات، يسكنها الرسل والاولياء والمؤمنون والعلماء وبين حديثه عن الجنات التي يسكنها هؤلاء، اذ يذكر لنا: " ثم اعلم ان اهل الجنة أربعة أصناف : الرسل وهم الأنبياء ، والاولياء وهم اتباع الرسل ... والمؤمنون ، والعلماء " [٤٢] ، وفي روايته ، يجعل ابن عربي من نفسه الولي الصالح يقوده السالك نحو السماء ، ففي القسم الأول تظهر شخصية رسول التوفيق الذي سيحضر السالك بدنيا وعمليا وعقائديا للمعراج، ومن ثم يرافقه في السموات السبع .

وفي القسم الثاني من الرواية يقص نبأ السالك في السموات السبع ، ففي الأولى التقى سر روحانية ابيه ادم(ع) ، وبعد ان استفاد من علومه ، ارتقى الى السماء الثانية وهي سماء الأرواح ، وهناك تنعمت ذاته بشهود سر روحانية عيسى (ع) ، وتلقى كذلك ظهير الأمان ، وهو ( مرسوم ) تعيينه وليا ، هذا المرسوم امر به روح الأرواح ، النبي عيسى (ع) ، وكتبه

كاتبه ووزيره ، وفي ذلك تأكيد على ان عيسى(ع) هو ختم الولاية المحمدية عند ابن عربي وعليه مدارها ، ويعد هذا المرسوم من اهم النصوص في الولاية لأنه يحدد صلاحيات الولي وواجباته ، وفي السماء الثالثة، سماء الجمال ومعدن الجلال، طلب السالك ان يعرف بمقام يوسف (ع) ، مقام امين الأمناء وجمال النبآء ، من ابصرته اللواهيت فحرقت النواسيت ورامت الخروج اليه عشقا فحين تم له ذلك ودع الى السماء الرابعة ، وفي الرابعة ، سماء الاعتلاء ، التقى سر روحانية ادريس عليه السلام ونرى السالك هنا يستقبل بعبارة : مرحبا بسيد الاولياء ، ونفهم من هذه الإشارة ان من وصل الى السماء الثانية وتم تعيينه وليا ، ان قطع فناء الثالثة فإنه سيحظى ببقاء الرابعة ، ويضيف السيادة الى الولاية فيصبح : سيد الأولياء ، وفي الخامسة، سماء الشرطة، التقى سر روحانية من ساد الانام، ولم تظهر سيادته، وهو هارون عليه السلام، وفي السادسة، سماء الكلام رأى السالك سر روحانية موسى عليه السلام ، الذي أوضح له غاية المعراج الصوفي ونتيجته ، قائلا له : ( اعلم انك قادم على ربك ... ) وهكذا يتضح للسالك في سماء الكلام ، معنى معراجه وحدود نهايته ، فهو وصول عرفان وعلم ورجوع دعوة ورفق ، وفي السابعة، رأى السالك سر روحانية الخليل ، يدور بالبيت المعمور في غلائل النور ، فطلب السالك منه الدخول الى البيت المعمور وهو لأهل السماء كالكعبة لأهل الأرض يصلون اليه ويطوفون به فأوضح له الشروط ، وبعد السبع الطباق يصل السالك الى سدرة المنتهى ويقف عاجزا امام ما يغشاها من النور والبهاء ثم يطلب الترقي منها الى الملأ الأعلى فيقال له: بينك وبينه حضرة الكرسي فيطير على اجنحة العزم الى الكرسي وهناك يلتقي قطب الشريعة(٤٣).

على ان الرسم الهندسي للمنازل السبعة بحسب وصف القديسة يكون بشكل دوائر وصولا الى مقام الله عز وجل ، وهي لا تختلف عن ما صوّره ابن عربي ، " اذ ما نراه عند ابن عربي في فتوحاته عند تصويره لرؤية الله في الدار الآخرة حيث تأتي ملائكة السماوات صافات ، ملائكة كل سماء على حدة متميزة عن غيرها فيكونون سبعة صفوف محيطة ، اهل كل سماء صف حول العرش الإلهي الذي يشغل مركز الدوائر السبع " (٤٤) .

ونجد ان ابن عربي يتحدث عن سبع جنات ( منازل ) فضلا عن جنة الوسيلة التي تكون اعلى كل جنة من الجنات السبع " أن جنة الاعمال مائة درجة ، غير أن كل درجة تنقسم إلى منازل، وأعلاها جنة عدن، يدور عليها ثمانية أسوار بين كل سورين جنة " وتتفق القديسة تيريزا مع ابن عربي ، اذ تذكر ان في القصر منازل سبعة فيها العديد من الغرف أي الدرجات ، وكلما كانت اعمال المرء صالحة فأنه سوف ينزل الجنة الأفضل، أي ان الناس يتفاوتون في الجنات حسب أعمالهم، يقول ابن عربي " جنة الاعمال وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر، فما من عمل من الاعمال الا وله جنة، فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرّم ومكروه الا وله جنة مخصوصة "(٤٥).

ويصور لنا ابن عربي الجنان تصويرا دقيقا فيقول " واعلم أن جنة الأعمال مائة درجة لا غير كما إن النار مائة درك غير أن كل درجة تنقسم إلى منازل فلنذكر من منازلها ما يكون لهذه الأمة المحمدية وما تفضل به على سائر الأمم فإنها خير أمة أُخرِجت للناس بشهادة الحق في القرآن وتعريفه وهذه المائة درجة في كل جنة من الثمان الجنات وصورتها جنة في جنة وأعلاها جنة عدن وهي قصبة الجنة فيها الكثيب الذي يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعالى وهي أعلى جنة في الجنات هي في الجنات بمنزلة دار الملك يدور عليها ثمانية أسوار بين كل سورين جنة فالتي تلي جنة عدن إنما هي جنة الفردوس وهي أوسط الجنات التي دون جنة عدن وأفضلها ثم جنة الخلد ثم جنة النعيم ثم جنة المأوى ثم دار السلام ثم دار المقامة وأما الوسيلة فهي أعلى درجة في جنة عدن وهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصلت له بدعاء أمته فعل ذلك الحق سبحانه حكمة أخفاها فإنا بسببه نلنا السعادة من الله وبه كنا خير امة اخرجت للناس وبه ختم الله بنا الأمم كما ختم به النبيين وهو صلى الله عليه وسلم بشر كما أمر أن يقول ولنا وجه خاص إلى الله عز وجل نناجيه منه ويناجينا وهكذا كل مخلوق له وجه خاص إلى ربه فأمرنا عن أمر الله أن ندعو له بالوسيلة حتى ينزل فيها وينالها بدعاء أمته فافهم هذا الفضل العظيم وهذا من باب الغيرة

الإلهية إن فهمت فلقد كرم الله هذا النبي وهذه الأمة فتحوى درجات الجنة من الدرج فيها على خمسة آلاف درج ومائة درج وخمسة أدراج لا غير وقد تزيد على هذا العدد بلا شك "[٤٦] .

في نهاية الامر يظهر لنا الوصف الرمزي للمنازل عند ابن عربي وتصميمه المعماري للفردوس وكأنها " سبعة محيطات تشكل سبع دوائر تتداخل بالتدريج ، وكل منها يتكون من مجموعة من الدرجات او الصفوف والمقاعد"، وفي المركز يكون عرش الله ، هذه الدوائر " جنة عدن وجنة الفردوس وجنة النعيم وجنة المأوى وجنة الخلد وجنة السلام وجنة المقامة ، والوسيلة وهي أعلى جنة في الجنات فإنها في كل جنة من جنة عدن إلى آخر جنة فلها في كل جنة صورة وهي مخصوصة برسول الله (ص) وحده نالها بدعاء أمته " [٤٧].

لقد وجدنا في ابداع القديسة تيريزا ووصفها للمنازل السبعة والوصول الى الله تشابها كبيرا فيما جاء عند ابن عربي وهذا يجعلنا نقف امام حقيقة لا بد منها وهو اطلاع القديسة على تراث هذا الصوفي المسلم ومعراجه الرمزي الى السماء السابعة ومقام الله عز وجل ، وهنا لا بد من الإشارة الى ان المستشرق الاسباني اسين بلاثيوس قد توصل في احدى دراساته ان القديسة الاسبانية قد اخذت فكرتها عن المنازل من مؤلف مسلم مجهول وهو صاحب كتاب " النوادر" في القرن السادس عشر الميلادي وقدم أسين نصاً عده دليلاً على أرائه ، وعده الأنموذج الإسلامي الذي اقتبست منه القديسة أفكارها ، وان العناصر الرئيسة للفكرة مأخوذة منه ، إذ يصل التشابه إلى وضعه المعقد في سبع مقامات متمركزة [٤٨] ، الا ان هذا الدليل غير كاف لجعلنا نؤكد ما ذهب اليه المستشرق الاسباني بأن القديسة قد اخذت فكرتها من المؤلف المجهول في كتاب النوادر ، اذ ان هذا الكتاب هو في الحقيقة مخطوطة من القرن السادس عشر ، أي معاصر او وصل بعد موت القديسة وبالتالي من الصعب ان نقول انها قد حصلت على تلك المخطوطة واخذت منها وهذا ما أكدته " لوثى لوبيث " التي بدورها حاولت البحث عن الأصل الإسلامي لفكرة القلعة الداخلية للقديسة تيريزا وذكرت عدة مصادر اهما كتاب ( مقامات القلوب ) لأبي الحسن النوري البغدادي فضلا عن مصادر لديانات أخرى ، وعلى الرغم من انها قد فندت أخيرا كل تلك المصادر لأنها لم تحصل على دليل حاسم لما سعت اليه الا انها اصرت على الأصل الشرقي لفكرة المنازل عند القديسة

تيريزا دون ان تقلل من شأنها وموهبتها في الكتابة حيث ذكرت : " ويبقى هنا شيء واحد وهو ان الصياغة المسيحية للقديسة تيريزا كانت اكثر عمقا من الصياغة الإسلامية ، واقوى ابداعيا ، كما انها صاحبة الفضل في جعل هذه الصورة مشهورة في الاتجاهات الروحية الغربية ، لقد رفعت القديسة مصادرها السامية الى هذه القمم الأدبية والروحية حتى لقد بدا شاحبا هذا الأصل البعيد القادم من أراضي الشرق ، ولكن اصرارنا على هذا الأصل الإسلامي البعيد القادم من أراضي الشرق ، لا يعني اننا نقلل من قيمة عبقرية القديسة تيريزا، لكن هذا الأصل حاسم فيما يتعلق برمز القلاع ، فقد عرفت المُصلحة كيف تمزجه بميراثها الثقافي المسيحي الخاص ، ورفعته الى درجة عالية لا يمكن انكارها في الادب الصوفي في العصر الذهبي ومن ثم عرفت كيف تدخله ضمن التراث المهجن الخصب"[٤٩].

ونحن بدورنا وان كنا نؤكد على تشابه فكرة المنازل مع ما جاء في مؤلفات ابن عربي فإننا لا نقلل من مكانة ومنزلة القديسة وكتاباتها التي تدل على عبقريتها ورفعة موهبتها الأدبية .

**الخلاصة**

تحدثنا في هذا البحث عن المنازل والمسير عبرها الى الله ، وكيف صورها لنا كل من المتصوف المسلم ابن عربي والمتصوفة المسيحية تيريزا دي خيسوس والذي يندرج ضمن التمازج الحضاري والتأثير والتأثر بين الحضارة الإسلامية ، لا سيما تلك التي نشأت على ارض الاندلس وبين الثقافة الاسبانية التي اخذت من الوجود الإسلامي وعلى مدى ما يقرب من ثمانية قرون تاريخ تفتخر به امام اوربا فلا يمكن لاحد ان ينكر الحضارة المعطاءة الزاهرة التي أقامها المسلمون هناك ونتاجات لا حصر لها لعلماء وادباء اضاءوا بها كل اوربا في العصور الوسطى ومن هؤلاء الذين كان له حضورا ومكانة رائدة المتصوف ابن عربي ( موضوع البحث ) الذي ولد في مرسيا وانتقل الى اشبيلية ومنها عبر الى الشرق ، والذي اثرت كتاباته في ابرز ادباء إيطاليا واوربا بشكل عام الا وهو دانتي اليغيري الذي اخذ من ابن عربي فكرة رائعته الكوميديا الإلهية ، اما عن القديسة الاسبانية تيريزا فليس لدينا ادنى شكل بموهبتها الأدبية وخيالها الواسع فضلا عن ايمانها المطلق لله ولدينها ، لكننا اخذنا عدد

من النصوص الواردة في كتاباتها ووجدنا انها كبيرة الشبه بما جاء في مؤلفات ابن عربي ، على الرغم من ان القديسة قد صرحت بأن مقامات القلعة الداخلية صادر من خيالها الخاص حيث ذكرنا انها قالت : " بينما كنت ابتهل الى الرب ان يبثني مناجاته ... وعملي يتمثل في النظر الى روحنا على انها حصن من الماس او من البلور الصافي " ، واذا ابعدنا فرضية ان تكون القديسة قد اطلعت على جزء من تلك المؤلفات فلا يمكن ان تستبعد ان افكارها قد وصلت الى القديسة شفاهيا حيث كانت متداولة في مجتمعها .

ومهما يكن من امر فإن الحب الإلهي عند كل من ابن عربي والقديسة الاسبانية قد وصل الى درجة عالية من الثقافة والوصف بغض النظر عن التشابه والتأثر ، وذلك لما ينطوي على مسيرتهم الرمزية الى الله من جمال ودهشة وخيال فائق ، وهذا ما شجعنا اكثر على ان نبحث في رحلة كل من المتصوفين وان نكشف اسرار عروجهما والوصول الى حد الكمال بقربهما او حتى الاتحاد مع الله عز وجل ، على امل ان نحصل على شرف ايضاح فكرة العلاقة ثم التقارب بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي فكلاهما نابع من حب إله واحد يجمع كل الأديان ، فضلا عن ذلك فإن دراستنا هذه لها بعدا اخلاقيا لكمال المجتمع والنفس الإنسانية عن طريق التعريف بطرق السالكين نحو الصلاح والتقرب الى الله وقد ابدع ابن عربي والقديسة تيريزا في توصيل تلك الفكرة بإسلوب لا يخلو من المتعة في المتابعة والخيال عبر المنازل السبعة والوصول الى اعلى درجات تهذيب النفس كلما ارتقى الانسان صعودا من منزل الى آخر .

b1)

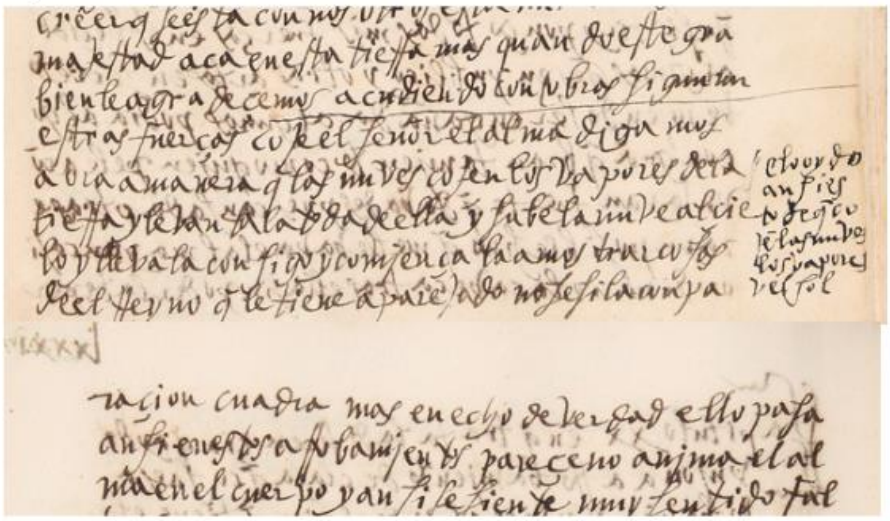

ms. Vitrinas 26, LXXXIr-v, lín. 22-29

b2)

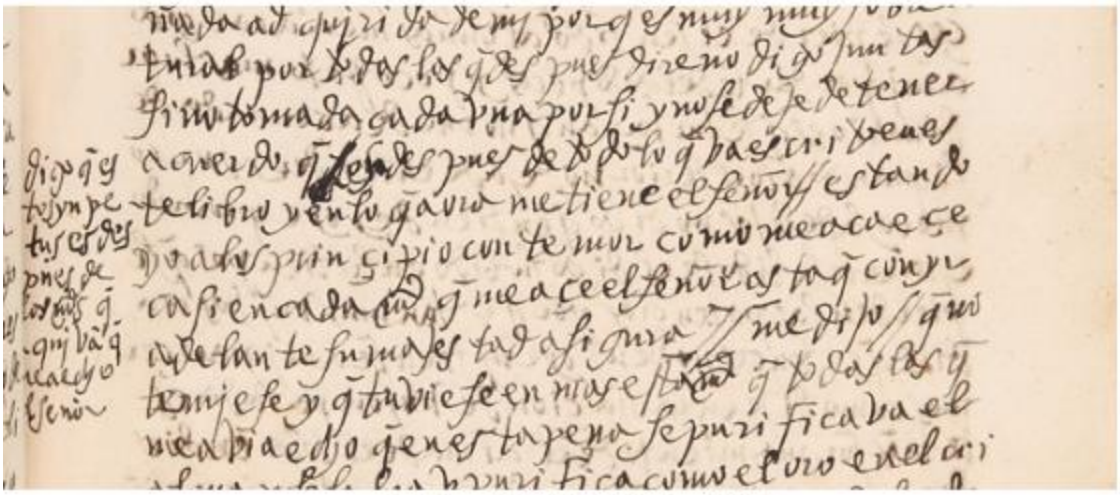

ms. Vitrinas 26, LXXXVr, lín. 10-26

BAldisserA، AndreA، En torno a un autógrafo: editar a Santa Teresa de Jesús ،pp:67,70,71.

**الهوامش:**

(١) هو ملك قشتالة وليون ، اصغر أبناء فرديناند ولد في مدينة بورغوس واشتهر في المدونات العربية بالالفونش أعاد اكتشاف التراث الأندلسي العظيم وكان له دوراً كبيراً في التعريف به مشجعا للعلم والأدب راعياً لهما فلقب بالحكيم تارة والعالم تارة أخرى . انظر مقالة : الجباري ، نجيب محمد ، الفونسو العاشر الحكيم أول المستعربين مجلة العربية ،( الرياض : ٢٠١١م) ، عدد ٤١٩ ، ص٤٧؛ حسن ، ضياء ماجد ، في الاستشراق الاسباني ، الفلسفة والتصوف بين الإسلام والمسيحية ، ( دمشق : دار امل للنشر ، ٢٠٢٠م) ، ص٥١ .

(٢) للمزيد عن ابن عربي ، انظر: السيوطي، تنبيه الغبي في تخطئة ابن عربي ، ( القاهرة : مكتبة الآداب للطباعة ، د.ت ) ؛ الشعراني ( ت٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م) ، القول المبين في الرد عن الشيخ محي الدين ، ( القاهرة : دار الكرز للنشر ، ٢٠٠٨م )، أبو زيد ، نصر حامد ، هكذا تكلم ابن عربي ، ط٣ ،( الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٦ )؛ عبد المعطي ، فاروق ، محي الدين بن عربي ، حياته ، مذهبه ، زهده ، ( بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣ ) ؛ بلاثيوس ، ميغيل لسين ، ابن عربي حياته ومذهبه ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ( القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥م ) . والمعروف ان ضريحه على سفح جبل قاسيون فسمي بحجر الفلاسفة وهو الان ضمن مسجد يحمل اسم محي الدين وفوقه قبة.

[٣] ) تاريخ الادب العباسي ، ترجمة: فؤاد خلوصي ، ( بغداد : المكتبة الاهلية ، ١٩٦٧م ) ، ص ص ٢١٠ ـ ٢١٧ ؛ وفضلا عن المصادر الإسلامية العديدة التي كتبت عن ابن عربي ، فقد اهتم المستشرق الاسباني ميغيل اسين بلاثيوس بشكل لافت بشخصية هذا الصوفي المسلم، اذ خصص له عدة دراسات مهمة ، من هذه الدراسات :

Asin Palacios, Miguel,«La Psicologia según Mohidin Abenarbi»,Actes du XIV Congrès Intrenational des Orientalistes,T.III,Paris,1906,PP.79-191.

- Asin Palacios, Miguel, «El mistico murciano Abenarabi. ( Monografias Y documentos), I Autobiografia cronológica»,Madrid,1925,PP.96-173.

ـ Asin Palacios, Miguel, El islam cristianizado.Estudio del «Sufismo» A través de Las obras de Abenarabi de Murcia, Madrid,1931.

([4]) Lewis، David، St. Teresa of The Order of Our Lady of Saint Teresa of Avila،p:21.

[٥] ) نلاحظ إن طريقة التسمية تحمل اسم عائلة الأب واسم عائلة الأم مما يدل على تقدير حق الأمومة عند الشعب الاسباني، وهذا ما نوه له السيد محسن جمال الدين في بحثه : في ميادين الاستشراق الاسباني العربي ، مجلة العرفان اللبنانية ، ( بيروت : ١٩٥٧م ) ، مج ٤٥ ، ج٢ ، هامش صفحة ١٤٤ ؛ حسن ، في الاستشراق الاسباني ، ص 51.

[6] ) Teresa،The life of St، Teresa of Avila, p:36.

[7]) mediavilla, fidel sebastián , Santa Teresa de jesus libro de la vida,(Madrid: Real academia Espanola), P,5 .

[8] ) Ibid, P,36.

اختلفت المصادر في تحديد وفاة والدتها ما بين الاعوام ١٥٢٧ و ١٥٢٨ و ١٥٢٩ لكن القديسة ذكرت في نص حديثها ان عمرها كان اقل من اثنى عشرة عام عندما ماتت والدتها، وهذا يرجح ما ذكرناه في المتن .

[9]) Teresa،The life of St، Teresa of Avila, p:37.

([10] ) Ibid, P :210.

11) Ibid, P:210 .

[12]) Carmen, Del, Obras de la Gloriosa madre santa Teresa de jesus ,( madrid) ,P,10 .

[13] ) Ibid, P,18 .

[١٤]) زعمت تيريزا انها رأت السيد المسيح (ع) في أماكن أخرى من كتاباتها ، وشاهدت السيدة العذراء كذلك ، ففي كتابها الذي تناولت فيه سيرة حياتها تذكر تيريزا : " قبل دخولي الدير كنت في الكنيسة أقوم بالتأمل ، فرأيت المسيح وانا في ذهول ، وبدا لي يستقبلني بحب كبير ويضع على رأسي إكليلا وهو يشكرني على ما صنعت من اجل والدتهومرة أخرى كانت الراهبات قد تجمعن بعد صلاة المساء فشاهدت السيدة العذراء في مجد عظيم ترتدي معطفا ابيض وكأنها تحمينا جميعا تحته فأدركت سمو درجة المجد الذي سيعطيه الرب لراهبات هذا الدير" .

“While praying in the church, before I went into the house, and being as it were in a trance, I saw Christ; who, as it seemed to me, received me with great affection, placed a crown on my head, and thanked me for what I had done for His Mother, On another occasion, when all of us remained in the choir in prayer after Compline, I saw our Lady in exceeding glory, in a white mantle, with which she seemed to cover us all. I understood by that the high degree of glory to which our Lord would raise the religious of this house” .

Teresa،The life of St، Teresa of Avila, p,209

[١٥] ) ولد القديس خوان دي لاكروث في إقليم أفيلا سنة ١٥٤٢م وتوفي سنة ١٥٩١م ، وأهم أعماله الشعرية ( أغاني روحية ) وتتضمن أربعون قصيدة مستوحاة من الأنماط التي سادت خلال عصر النهضة ، و( ليلة مظلمة ) و ( شعلة الحب الحي ).

[15]) Carmen, Del, Obras de la Gloriosa madre santa Teresa de jesus ,( madrid) pp,11o-112)؛ Roth, Norman, Conversos, Inquisition, , P.157

[16] ) Carmen, Ibid, P.157.

[17]) Teresa،The life of St، Teresa of Avila, pp,206,207.

[١٨]) في ملحق الصور نمازج لكتابات القديسة عن سيرة حياتها كتبتها بخط يدها .

[19]) Baldissera، Andrea، En torno a un autógrafo: editar a Santa Teresa de Jesús، p:67,70,71.

[٢٠] ) حسب ما يزعم الكاتب جوزيف ف. كوربينينج نقلا عن رواية لفراي لويس دي ليون (وهو شاعرا واكاديميا وعالما لاهوتيا وراهبا اوغسطينيا توفي عام ١٥٩١م ) اذ قال: " توفيت تيريزا «ابنة الكنيسة» في ٤ أكتوبر ١٥٨٢ (١٥ أكتوبر وفقا للتقويم الميلادي) ، وبعد تسعة أشهر من وفاتها (٤ يوليو ١٥٨٣) ، تم استخراج جثتها ووجدت أنها غير فاسدة ، وفي ١٧ أكتوبر ١٥٨٥ تم استخراجها مرة أخرى حتى يتم نقلها من ألبا دي تورميس حيث دفن إلى مدينتها أفيلا واكتشف ان جثتها ما زالت أيضا سليمة وغير متفسخة ، وفي ١ يناير ١٥٨٦ اعيد فحص آخر لجسدها ووجد انه محفوظة بأعجوبة " :

" Teresa died «a daughter of the Church» on October 4, 1582 (October 15 according to the Gregorian calendar). Nine months after her death (July 4, 1583), Teresa's body was exhumed and found to be incorrupt. On October 17, 1585 it was exhumed again so that it could be transferred from Alba de Tormes, where Teresa had died and was buried, to Ávila and was discovered to remain incorrupt. On January 1, 1586, after another examination of her miraculously preserved body "

Chorpenning, F, Joseph, Fray luis De leon's Writings On ST. Teresa of Jesus: A Defense of mysticism and religioious reform، (madrid,1992),P,138 .

[٢١] ) مختار ، ريم ، القديسة تيريزا معلمة الكنيسة ، مقالة على شبكة الانترنيت على الرابط :
albawabhnews.com

[٢٢]) الرملي ، محسن ، الادب الاسباني في عصره الذهبي ، ( بغداد ، دمشق : دار المدى ، ٢٠١٥)،ص١٢١.

[٢٣] ) يذكر المستشرق الاسباني اسين بلاثيوس في بحثه عن القديسة تيريزا وبحث اخر عن احد المتصوفة المسلمين وهو أبو العباس ابن العريف انه " قد عاد الى تاريخ القديسين دي لاكروث وتيريزا دي خيسوس ، وإلى نصوصهم التي يعدها من أهم نصوص التراث الروحي للمسيحية وأروعها ، وتوصل الى إن القديسين المذكورين كانا متأثرين في آراءهما الصوفية بالمتصوفة المسلمين"

Asin Palacios,El Simil De Los Castillos Y Moradas Del Alma En La Mústica slámica Y En Santa Teresa, Al-Andalus, 1946,PP.263-274 ؛

El mistico abulabas benlaref de almeria y cu mahasin al – machalis " , (boletin de la universidad de madrad , madrad ,1931) ,P,455.

[24]) St. Teresa of Avila، The interior castle or The mansions، Third Edition with Additional Notes Thomas Baker,( London :١٩٢١), p,20.

وفي التراث الإسلامي نقرأ عن الامام علي (ع) : " في الجنة لؤلؤتان إلى بطنان العرش، إحداهما بيضاء، والأخرى صفراء، في كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة، أبوابها وأكوابها من عرق واحدة، فالبيضاء الوسيلة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، والصفراء لإبراهيم وأهل بيته " . انظر : الطبرسي ، أبو علي الفصل بن الحسن ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، ج ٣ ، ص ٣٢٧.

[25]) St. Teresa of Avila، The interior castle or The mansions، Third Edition with Additional Notes ,Thomas Baker, London [١٩٢١] ،p21.

[٢٦] ) ابن عربي ،الاسرا الى المقام الاسرى ، ص ١٣٥ .

[٢٧] ) المصدر نفسه ، ص ٦٨ .

[28] ) Michel، Chodkiewicz, Le Sceau des saints : Prophétie et sainteté dans la doctrine d'Ibn 'Arabi, Bibliothèque des sciences humaines, Éditions Gallimard, Paris, 1986, 235 pp.

[29] ) Teresa،The life of St، Teresa of Avila, p,22 .

[٣٠] ) انظر: ابن عربي، رسالة الانوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الاسرار ، على موقع " الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي ".

[31]) St. Teresa of Avila، The interior castle or The mansions، p,22.

[٣٢] ) انظر: ابن عربي، رسالة الانوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الاسرار ، على موقع " الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي ".

[٣٣] ) ابن عربي ، رسالة الانوار ، الموقع نفسه .

[٣٤]) الاسرا الى المكان الاسرى ، مقدمة الكاتب ، ص٢٤ .

[35]) St. Teresa of Avila، The interior castle or The mansions، p,28.

[36] ) Ibid, P,35.

[37] ) Ibid, P:40.

[38] ) Ibid ,p,49.

[39] ) Ibid ,p,71.

[40] ) Ibid p,146.

[41] ) Ibid ,p,161 .

[٤٢]) الفتوحات المكية ، ج١، ص ص ٤٨١، ٤٨٢ .

[٤٣] ) الاسرى الى المقام الاسرى ، ص ٣٨ .

[٤٤] ) فضل ، صلاح ، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي ، ط٣ ،( القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٦ )، ص١٦٦ .

[٤٥] )الفتوحات المكية ، ج١، ص 478 .

[٤٦] ) المصدر نفسه ، ج١، ص ص ٤٨١، ٤٨٢ .

[٤٧] ) المصدر السابق ، ج١، ص ص ٤٨١، ٤٨٢ ؛ فضل ، تأثير الثقافة الإسلامية ، ص١٦٦ .

[48]) Asin Palacios,El Simil De Los Castillos Y Moradas, P.267.

وترجمة النص هو : " لقد جعل الله لكل بني ادم سبع قلاع ، يوجد هو في وسطها والشيطان من خارجها ينبح مثل الكلب . وعندما يترك الإنسان فرجة تفتح فيها فإن الشيطان يدخل منها ؛ ولذلك فانه من الأفضل أن يحرسها ويرعاها بكل عناية ، وخاصة القلعة الأولى لأنها طالما ظلت سليمة وقائمة على قواعدها لا يخشى أي شر ، وأولى القلاع وهي من اللؤلؤ المغشوش ، هي حصن الروح الحساسة وفي داخلها توجد قلعة من الزمرد هي الطهارة وصدق النية ، وفي داخلها قلعة من الخزف البراق ، وهي أداء أوامر الله ونواهيه ، وفي داخلها قلعة من الحجارة وهي شكر النعم الإلهية والرضا بقضاء الله ، وفي داخلها قلعة من الحديد وهي التوكل على الله ، وفي داخلها قلعة من الذهب ، وهي التأمل في الله ﷻ ".

[٤٩] )بارالت ، لوثى لوبيث ، اثر الإسلام في الادب الاسباني ، ترجمة : حامد يوسف واخرون ، ( القاهرة : مركز الحضارة ، ٢٠٠٠م ) ، ص ١٩٦ .